ظاهرة توطين البادية

للأستاذ : عبدالله حمد الحقيل

الملك عبدالعزيز عظيم من عظماء تاريخنا العربي والإسلامي. وليس في وسع الكاتب ان يحيط بأبعاد شخصيته وأعماله وعبقريته وسداد رأيه. وبفضل الله وعونه وتوفيقه استطاع ان يؤسس بنيانا شامخا. ويقيم صرحا اساسه التقوى واتباع الدين الإسلامي الصحيح. ويضع نهضة حضارية ما زال ابناء هذا الوطن يسعدون في ظلها.. وكان اهتمام جلالته ببناء الانسان يدل على اتخاذ المنهج الصحيح في تكوين قواه الفاعلة وهو يدل على حكمة عظيمة تميز بها جلالته. ولقد كتب الكثيرون عن شخصية الملك عبدالعزيز وعن جوانب شخصيته وما تتميز به من سمات ومزايا وقدرة وعبقرية. فقد وهبه الله مواهب عقلية وخلقية. وكان همه توحيد هذه البلاد وجعل كلمة لا اله الا الله هي العليا.وبناء دولة عربية اسلامية تعيد لهذه البلاد وجهها الصحيح. ويقيم صرحا شامخا أساسه التقوى واتباع الدين الاسلامي الصحيح حيث شيد بناءه على الاخلاق والدين وجعلها غاية وهدفا.. ولقد أكد ذلك جلالة الملك فهد في لقائه في جامعة الامام حيث قال ، الشرف الأكبر هو قيام هذه الدولة كيانا وتكوينا على القاعدة الاسلامية ، لقد جمع هذا الكيان بعد أن كان متفرقا. ووحده بعد ان كان مشتتا[1]..

إن عبدالعزيز ما زال ذكره حيا في النفوس. فهو حي بأعماله الجليلة التي تمثلت في بناء هذا

الكيان الكبير.. المملكة العربية السعودية.. ولقد حمل ابناؤه الراية من بعده، يعملون لهذه الامة في إرساء قواعد المجد والتقدم والرقي..

ومهما كتب الباحث فانه لن يستطيع ان يحصى الانجازات التي عملها، وملاحم بطولاته التي غايتها اعلاء كلمة التوحيد، وجمع أبناء هذه البلاد على كلمة الحق.. والوحدة الشاملة. لقد نذر حياته في سبيل الدفاع عن مبادىء الإسلام، وانتشاره وتوفير الأمن والطمأنينة لهذه الامة بعد فترة من التمزق والخوف والانقسامات والفرقة.. تلك الاهداف التي حرص الملك عبدالعزيز على تحقيقها وما زالت حية في اذهان ابناء شعبه.. ولقد كان عبدالعزيز ذا قلب كبير ممتلىء بالحب لأبناء شعبه فكان ذلك دافعه إلى اقامة العدل وتوفير اسباب الحماية والرعاية للجميع.. يقول المؤرخ الانجليزي المشهور «ارمسترونج» في كتابه المعروف «سيد بلاد العرب» كان عبدالعزيز كبير القلب ندى الكف جسورا لا يعرف الصبر عنده حدودا عليها بنفوس العرب حكيما في معاملة القبائل وقد أوتي المزايا والخصال التي يعجب العرب بها..[2].

ولقد كان الملك عبدالعزيز يقول « انا نحمد الله على جمع الشمل وعلى جعل الحكم في هذه الديار بكتاب الله وسنة رسوله » وكان يقول « يجب علينا ان نكون عند حسن الظن بنا فلا نتفرق ونتحاقد، لان ذلك من اسباب هلاكنا » وكان رحمه الله مشهورا بالتدين والورع، ونصرة الضعيف، والأخذ بيده، وغير ذلك من القيم الاخلاقية السامية، والمثل العربية الإسلامية الأصيلة.

إن في حياة الملك عبدالعزيز وفي سيرته وفي اخلاقه وفي عبقريته وفي سجاياه وفي فتوحاته وحروبه موردا ثراً لا ينضب معينه، ولو دقق كل باحث ومحقق فسيجد في سيرته وانتصاراته العسكرية[1] والاخلاقية موردا صافيا، ومنهلا عذبا وما زالت صدور الكثيرين ممن عاصروا الملك عبدالعزيز زاخرة بالذكريات والقصص والروايات، وفي كل مجلس أسمع قصصا وبطولات متعددة الأطراف، لم يكتب عنها بعد، تفيض بالخلق الرفيع والمثل النبيلة والشيم العربية الأصيلة، فقد كان هادىء المزاج كريم الاخلاق، حليم الطباع، طيب العشرة ولطيفها، قليل الكلام، ومفيده، كثير التفكير صبورا شجاعا متواضعا[2]..

ولقد قال لي مرة أحد شيوخ القبائل خلال جولاتي التفتيشية على المدارس: ان حسنات

عبدالعزيز وفضائله لا يعرفها ويذكرها الا من عاش في ذلك العصر المليء بالخوف والتناحر والعداء. فقد كانت كل قبيلة تغزو القبيلة الاخرى، وتأخذ مالها وتستبيح دمها.. وكان الحاج وغيره يتعرض للنهب والسلب من قُطّاع الطرق..

وهكذا كان لشخصية (عبدالعزيز) من القوة والفعالية في النفوس ما أشاع ووطد الأمن، وثبت الاخلاص والولاء لجلالته. وتغلب فيه على كثير من الصعاب لتحقيق نهضة جبارة.

أجل لقد وحد عبدالعزيز هذه الجزيرة وأعاد لها الأمن والاطمئنان وحظي بالحب والتقدير ولقد قيل:

لا يحكم الناس في عصر تعيش به   الا الذي لقلوب الناس يمتلك

لقد حرص الملك عبدالعزيز على نصرة الدين والحفاظ على العقيدة الإسلامية تحت شعار التوحيد الإسلامي وتوثيق عرى الدين وتوحيد كلمة المسلمين والتأليف بين قلوبهم.[٣]

حتى كانت هذه المملكة المترامية الاطراف المتحدة الاجزاء ولقد خلد الشاعر ابن عثيمين بقصائده تاريخ موحد ومؤسس هذه المملكة وباني نهضتها اذ يقول : ـ

بكم هدى الله ماضينا وآخرنا   فأنتم رحمة نلنا بها الأملا
يحصي الحصى قبل ان تحصى فضائلكم   دينا ودنيا واحسانا ومنتحلا

ويقول واصفا الملك عبدالعزيز بالجد والشجاعة والعزيمة :

ذاك الامام الذي كانت عزائمه   تسمو به فوق هام النسر والقطب
عبدالعزيز الذي ذلت لسطوته   شوس الجبابر من عجم ومن عرب
ليث الليوث اخو الهيجاء مسعرها   السيد المنجب ابن السادة النجب

لقد كان طيب الله ثراه لا يملك ـ عندما خرج من الكويت ـ الا ارادته الفولاذية وقلبه الكبير جنبا إلى جنب مع شجاعته التي قهر بها عددا لا يحصى من أبرز رجال عصره، وكرمه الذي طبع عليه دمه ولحمه[٤].

ولم يكن الملك عبدالعزيز قائداً عسكرياً فحسب حيث استطاع بنفر قليل ان يفتح البلدان

ويدك الحصون ويقاوم الاعداء، بل كان زعيما حضاريا ـ يمثل الانسان في نظره قيمة حضارية فتها الاحترام والتقدير، ولذا ينبغي وضعه في المكان المناسب. ولعل ذلك الاتجاه هو أبرز واسمى جهود جلالته، دلالة على اتباعه للمنهج الصحيح في تكوين قواه الفاعلة. وهو يدل على حكمة عظيمة تميز بها جلالته، وكان همه الاكبر ان يجد أبناء وطنه وقد أخذوا اماكنهم في قيادة أممهم على أسس من الدين الإسلامي، وبذلك تصفو النفوس ويتبوأ الانسان المسلم مكانه الصحيح وسط ذلك العالم..

ومن هنا كانت أولى خطواته الاصلاحية هي تحضير وتوطين البادية فعندما يقف الانسان امام حياة البادية لدراستها يجد نفسه ازاء موضوعات قد تكون متناقضة لأول وهلة، حيث اختلف الكثيرون في تفسير حياة البدوى وصفاته، فبينما نجد البعض قد ذهب إلى وصفه بالقوة وتحمله المشاق [٥] نجد البعض الآخر يذهب بالمقارنة بين البدوى وبين من سبقوه في المضمار الحضاري إلى وضعه في حالة من التفوق والسمو نظرا لما اكتسبه من صفات لا تزال البشرية ترنو اليها لتحقيق قدر منها كالحرية والمساواة والاخاء[٦] فالمساواة مطلقة بين الأخ وأخيه في حدود الحقوق والواجبات التي تحددها القبيلة، فلا نزاع هناك ولا اطماع بينهما الا من اجل الاحتفاظ بالثروة التي يتربع على قمتها الخيل والابل[٧].

فحياة الترحال موضع فخر البدوى اتخذها سجية لحياته اليومية واضعا هذه الانطلاقة غير المحدودة نموذجا حيا تميزه عن اولئك المقيدين بقيود التمدن، ويعتبر نفسه لذلك اكثر سعادة منهم ان لم يعتبرهم ادنى مستوى منه[٨]..

ومن طبائع البدو انهم يقيمون وزنا لكل صادق قول، فالقول السديد والحجة القوية اشد تأثيرا في طبائعهم الشديدة الاحساس المتقدة الذهن. وقد اصاب الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، هذه الحقيقة وادرك هذا الواقع الذي يعيش فيه قطاع ضخم من مواطنيه.

يقول الريحاني :

(لقد شاهدت معرض العطاء في الرياض، بل كنت اشاهده كل يوم مدة اقامتي هناك. وأعجب جدا لا لكرم هذا الرجل، بل لايمانه وثقته بالله، مصدر الخير اللامتناهي، وولى النعم

التي لا تزول، والا فكيف بدوام يمكنه من العطاء في بلاد لا ثروة لها ثابتة ودائمة[٩]).

وأمام هذه الاعتبارات فكر الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ في مشروع اصلاحي يرمي إلى تأمين حياة مستقرة للبادية حول ينابيع المياه، ومن ثم تعليمهم الزراعة واستثمار الايجابيات الكامنة داخل هؤلاء.

ورأى الملك عبدالعزيز أن خير وأفضل أسلوب لإقناع هؤلاء هو تعليمهم وغرس المبادىء الإسلامية الصحيحة في نفوسهم. وامام قوة الحجة الدينية وشخصية الملك عبدالعزيز والدعاة الذين ارسلهم إلى القبائل بدأت ثمار ذلك المشروع تؤتي أكلها.. في عام ١٣٢٩هـ/١٩١٢م اجتمعت جماعة من قبائل حرب تلقب بعشيرة (العربمات) في مكان بالقرب من (المجمعة) بلغ عددهم ما يقرب من الخمسين فردا على آبار الارطاوية الواقعة على الطريق بين الكويت والمجمعة ليكونوا بمثابة نقطة البدء في مشروع توطين البادية. وتكونت أول (هجرة) هناك عرفت بـ (هجرة الارطاوية) وسكنها (سعد بن مثيب من حرب)[١٠] ثم اعطيت لفيصل الدويش وجماعته من مطير.

وتبع الارطاوية (الغطغط) وسكنها بطن من (عتيبه) وهي بطن (برقة) وتوالت بعد ذلك الهجر حتى عدها الريحاني في كتابه (نجد الحديث) بما تزيد على سبعين هجرة[١١] علما بأنها تزيد على ذلك بكثير. وقد وقفت على الكثير منها خلال جولاتي التفتيشية بوزارة المعارف.

وسميت المنازل الجديدة بـ (الهجرة) لارتباطها الديني والاجتماعي والحضاري بمفهوم الانتقال من حال إلى آخر. وقد اكتسب ذلك التعريف في عهد الملك عبدالعزيز مزيدا من الشمول والسعة، عما كان عليه سابقا.

والاعمدة الرئيسية لإقامة الهجرة ثلاثة أو أربعة عند البعض البئر والمسجد والمسكن، والعامل الأهم في نظرنا هو.. مبادىء الدين الحنيف والسير على منهج السلف الصالح.

وعادة يبدأ بناء المسجد، ثم يأتي بعده دور المساكن التي تلتف حوله، ومن ثم يبدأ التوسع شيئا فشيئا، وقد وضع الملك عبدالعزيز تحت ايدي قاطني الهجرة التسهيلات اللازمة لحياتهم المعيشية كالمال والحبوب والادوات الزراعية لحراثة الارض، بالاضافة إلى كل ما هو ضروري

للمسجد، الذي يمثل مدرسة للهجرة تلقى فيه المواعظ والدروس فاذا استقام أهل الهجرة في مقارهم، تم توزيع الذخيرة عليهم وتسجل أسماء القادرين على الحرب ليكونوا على أهبة الاستعداد إذا نادى منادى الجهاد. أما أهل الحاجة والضعفاء فلهم أعطيات خاصة بهم مسجلة على أربعة أنواع هي الشرهة والقاعدة والبروة ثم المعونة.

لقد كان التضامن والتآزر مشجعا على مظاهر الحياة الجديدة بالهجرة، فاذا أصيب أحد الافراد، أو فقدت الأسرة عائلها، كان من الواجب على رفاقه تقديم يد العون إلى أسرته التي تركها، واذا وقع احدهم في ضائقة مالية قاموا بجمع المال الضروري له حتى يكفوه شر الحاجة.

لقد أضفت تجربة التوطين في عهد الملك عبدالعزيز نوعا جديدا من العلاقات بين الافراد، أساسه الصلة الدينية المتينة، والتآزر من أجل حياة افضل، والانتقال الحضاري لممارسة الزراعة إلى جلب الرعي. وسلوك طريق التوعية والتثقيف.

وزادت نسبة الأمن في البلاد واصبحت من احدى السمات الاساسية التي تميزت بها المملكة منذ عهد الملك عبدالعزيز وحتى وقتنا الحاضر يقول « ارسلان ».

« كنت صاعدا إلى الطائف ومعي عباءة احسائية سوداء جعلتها وراء ظهري في السيارة، ويظهر أنها سقطت مني في الأرض. . ولم انتبه لها فاخذ الناس يمرون ويمرون والعباءة ملقاة على قارعة الطريق فلا يجرؤ أحد ان يمسها. . واخيرا وصل خبرها امير الطائف فارسل سيارة أتت بها واخذ بالتحقق عن صاحبها، فقيل له اننا نحن الذين مررنا من هناك فجاء الامير في اليوم الثاني لردها الينا»[١٢].

لقد كانت تجربة التوطين رائدة في توعيتها الحضارية والتاريخية وفكرة جديدة سبق وقته ومكانه، بنى عليها الملك عبدالعزيز رحمه الله بناء راسخا، ومثلت لبنة في بناء شامخ، متعدد الأسس وان كانت النواة الاولى هي الدين الاسلامي الصحيح واعتماده على رجال هم جند في وقت الشدة وأيد قوية وقت السلم..

لقد كان الملك عبدالعزيز حريصا على الاهتمام بشئون المسلمين ورعاية مصالحهم والسؤال عن احوالهم ولذا فقد احتل مكانة كبيرة في نفوس مواطنيه وقلوب المسلمين جميعا..

يقول الدكتور عبدالفتاح حسن ابوعلية في كتابه « الاصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز » ص ١٤٣ حول هذا الموضوع :

لقد تجمعت عدة عوامل ساعدت على نجاح مشروع الملك عبدالعزيز وإخراجه من حيز الفكرة إلى حيز التنفيذ والعمل ومن أهم هذه العوامل :

أولا : سذاجة البدو وعاطفتهم، حيث انهم يصدقون كل شيء ويندفعون في سبيل تحقيق ما يعتقدونه اندفاعا قويا، وهذا ساعد على نجاح مشروع الملك عبدالعزيز.

ثانيا : ان الحماس الديني الموجود عند البدو البسطاء كان عاملا قويا من عوامل نجاح المشروع. فالبدو لا يهتمون بالسياسة، وإنما لديهم احساس عميق بالامور الدينية.

ثالثا : لقد ساعدت ارشادات العلماء الدينيين والمرشدين في انجاح المشروع.

رابعا : لقد نجح الملك عبدالعزيز آل سعود في ارساء فكرة بيع القبائل لجمالها التي هي رمز البداوة، وان تعتمد على الزراعة بدلا من الرعي، وتكون مجتمعا زراعيا مستقرا، بدلا من مجتمع رعوي متنقل. وساعده في ارساء فكرته هذه جماعته الذين يشرفون على تثقيف البدو وتعليمهم.

خامسا : كثرة عطايا الملك عبدالعزيز ومساعداته لأبناء البادية من الأموال والأرز والحبوب والشاي والبن وبعض التسهيلات اللازمة للزراعة. والواقع أن هجرهم لم تكن هجرا زراعية بالمعنى الحقيقي، وانما هي على شكل وحدات سكنية بناها البدو حول بئر ماء وبجانبه مسجد. وكان جل اعتماد البدو على عطايا الدولة.

سادسا : ان البدو ملوا حياة الترحال، ولذا وجدت لديهم اسباب قيام نوع من الاستقرار الذي فضلوه على الترحال، وقد تأثروا في حبهم لحياة الاستقرار بعوامل سنوات المحل المتتالية، والجفاف المميت في ديارهم، وهذا معناه القضاء على موارد رزقهم التقليدية. زد على هذا انهم فضلوا الاستقرار لانهم كانوا يجدون مرونة العيش في المدن أكثر من الصحراء.

سابعا : لقد استطاع الملك عبدالعزيز ان يقنع رؤساء القبائل بالحضور إلى الرياض والدراسة في مسجدها الكبير للأمور الدينية على مشايخ أعدهم لهذه الغاية. ليعودوا وينشروا هذه التعاليم الدينية بين افراد قبائلهم.

ويصف لنا « هاريسون Harrison » البريطاني الذي زار الرياض سنة ١٩١٨م حالة الاخوان فيقول : « ان الناس يعيشون للعالم الآخر. مئات يدرسون في المساجد ليكونوا معلمين دينيين للبدو بين القبائل. وكانت الرياض مركزهم الديني. ومنها يوزع العلماء إلى انحاء البلاد ليقوموا بتثقيف البدو هناك.

ثامنا : مرونة نظام الملك عبدالعزيز الخاص بالتوطين. فقد سمح لكل قبيلة كبيرة ان تبقى قسما من افرادها في الصحراء يعملون في الرعي. واما الباقون فيرسلون إلى الهجر للقيام بالاعمال الزراعية. فكانت مرونة النظام وسهولته من العوامل المشجعة للبدو على قبول المشروع.

تاسعا : وفي اعتقادنا انه عندما كانت تؤسس الهجر لتوطين الاخوان كان يرافق هذه العملية توزيع الاراضي المجاورة للهجرة على البدو الجدد المقيمين في الهجر الجديدة. وبهذا يكون البدوى قد حصل على حصة من الاراضي لم يكن ليحصل عليها لولا هذا المشروع. ففى رأينا ان هذا كان عاملا مشجعا لقبول البدو لمشروعها لأنه يدر عليهم الفوائد الكثيرة.

وهذا بيان بأسماء الهجر : -

القبيلة	اسم الهجرة	القبيلة	اسم الهجرة
١ - مطير	الارطاوية	٢ -	قرية العليا
٣ -	قرية السفلى	٤ -	مبايض
٥ -	الفروثي	٦ -	اثلة
٧ -	مكة	٨ -	ضريه
٩ -	مليح	١٠ -	الارطاوى
١١ - عتيبة (الروقة)		١٢ -	عرجا
١٣ -	نفحا	١٤ -	ساجر
١٥ -	الصوح	١٦ -	عيله
١٧ - (برقا)	(الغطغط)	١٨ -	عروى
١٩ -	سنام	٢٠ -	الروضة
٢١ - الدواسر	مشيرفه	٢٢ -	الوسيطة
٢٣ - بنو مرة	ابيرق	٢٤ -	الشياك
٢٥ -	عين دار	٢٦ - قحطان	قحطان
٢٧ -	الهياثم البادية	٢٨ -	الجفير
٢٩ -	الحصاة	٣٠ -	الرين السفلى
٣١ -	الرين العليا	٣٢ - العجمان	الصرار
٣٣ -	عريعره	٣٤ -	حنيذ
٣٥ -	الصحاف	٣٦ -	العقير
٣٧ - حرب	دخنه	٣٨ -	قبه
٣٩ -	الفواره	٤٠ -	الشيكة
٤١ -	البرود	٤٢ -	الدليمية
٤٣ -	القرين	٤٤ -	حنيظل

القبيلة	اسم الهجرة	القبيلة	اسم الهجرة
٤٥ ـ	الساقية	٤٦ ـ	حليفة
٤٧ ـ العوازم	ثاج	٤٨ ـ	الحسى
٤٩ ـ		٥٠ ـ	العتيق
٥١ ـ	النوان	٥٢ ـ	القصير
٥٣ ـ	البلاذية	٥٤ ـ	الغيضبة
٥٥ ـ	التيم	٥٦ ـ	الشقيق
٥٧ ـ	المصاع	٥٨ ـ شمر	الاجفر
٥٩ ـ	العظيم	٦٠ ـ	الحقي
٦١ ـ	الحيسة	٦٢ ـ	يفض نتيل
٦٣ ـ	ام القليبان	٦٤ ـ	خريفط
٦٥ ـ	المريـر	٦٦ ـ	البدع
٦٧ ـ	الاخضر	٦٨ ـ	طيسم
٦٩ ـ هجر متنوعة	القبيعة	٧٠ ـ	المنيصف
٧١ ـ	الرويضة		

حقا لقد غرس عبدالعزيز في هذه الارض الطيبة المباركة اعظم وحدة في تاريخ هذه البلاد. فحول ضعفها إلى قوة. وتمزقها وتفتتها إلى كيان كبير قوى راسخ حتى اصبحت المملكة العربية السعودية اليوم نموذجا رائعا. ومثلا فذا حقيقيا للوحدة الوطنية. وتابع ابناؤه سياسته الحكيمة بأمانة واخلاص حتى وصلت البلاد إلى ما وصلت إليه من منجزات حضارية شملت جميع جوانب الحياة في عهدنا الزاهر.

الهوامش

(١) انظر عبدالمنعم الغلامي، الملك الراشد جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود، دار اللواء ١٤٠٠هـ ص ٢٢ - ٩١.

(٢) محمد عثمان، السعودية وهموم العرب خلال نصف قرن، ١٩٢٣ - ١٩٧٨م بيروت ١٩٧٨م ص ١٥.

(٣) جلال كشك، السعوديون والحل الإسلامي مصدر الشرعية للنظام السعودي ط ٣ سنة ١٤٠٢هـ ص ٢٨٠.

(٤) فهد المارك - من شيم الملك عبدالعزيز، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٠هـ جـ ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٥) جاكلين بيرين - اكتشاف جزيرة العرب - ترجمة قدرى قلعجي - ص ٣١٩.

(٦) مجلة الزهراء جـ ١ - م١ - ص ٤٤ محرم ١٣٤٤هـ، نقلا من كتاب (مسلمي الاندلس، لدوزى).

(٧) Daughty, Travels in Arabia Desert, PP. 56/57

(٨) ابن خلدون - جـ ١ - كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر - ص ١٢ - ١٢٢.

(٩) امين الريحاني - ملوك العرب - جـ ٢ - ص ٩١.

(١٠) فؤاد حمزه - قلب جزيرة العرب - ص ٣٧٩.

(١١) الريحاني - تاريخ نجد - ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

(١٢) شكيب ارسلان : الارتسامات اللطاف - ص ١٢٢.

اخي المواطن، ان اقتران الدارة باسم الملك عبدالعزيز رحمه الله، انما هو وفاء بحقه على أمته.. وتقدير منها لدوره البطولي في تأسيس مملكتنا الشامخة، ورمز لاحياء دارات العرب قديماً بما كانت تضفيه على الوافدين اليها من كرم وسخاء.. وهذه تقدم للباحثين وراغبي العلم والمعرفة ما يغترفونه من معين العلم الذي لا ينضب..

«مع تحيات دارة الملك عبد العزيز»